

فضائل

الاستغفار

جمع در ريب

من خطب و محاضرات فضيلة الشيخ
أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان
يحفظه الله تعالى

الشيخ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا
وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢].

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

[النساء: ١].

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

• أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ،
وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ
ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

• أَمَّا بَعْدُ:

فَتْحُ أَبْوَابِ التَّوْبَةِ وَالْإِسْتِغْفَارِ

فَإِنَّ الْإِسْتِغْفَارَ تَطَهُّرٌ وَنَقَاءٌ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ، وَلَا يَخْفَى عَلَى لَيْبِ أَثَرِ الذُّنُوبِ وَأَثَرِ الْأَوْزَارِ فِي حَرَمَانِ الْعَبْدِ مِنَ الرِّزْقِ وَالتَّوْفِيقِ لِلْخَيْرِ؛ فَإِنَّهُ مَا يُصِيبُ الْإِنْسَانَ مِنْ شَيْءٍ يَكْرَهُهُ إِلَّا بِذَنْبٍ أَحَدْتَهُ، مَا يُصِيبُ الْإِنْسَانَ مِنْ شَيْءٍ يَكْرَهُهُ إِلَّا بِذَنْبٍ أَحَدْتَهُ.

فَإِذَا تَطَهَّرَتِ النُّفُوسُ، وَتَحَرَّرَتِ مِنْ قُبُودِ الْمَعَاصِي وَأَثْقَالِ الْآثَامِ؛ فَإِنَّهَا سَوْفَ تَنْشَطُ فِي سَعْيِهَا وَبَحْثِهَا عَنْ رِزْقِهَا.

وَطَلَبُ الْمَغْفِرَةِ مِنَ اللَّهِ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى اعْتِرَافِ الْعَبْدِ بِذَنْبِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِقَدْرِ رَبِّهِ؛ لِذَا قَالَ -تَعَالَى- حِكَايَةً عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢].

يُرْسِلُ مَطَرًا مُتَّابِعًا يَرِي الشُّعَابَ وَالْوِهَادَ، وَيُحْيِي الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ، وَمَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَحَفِظَ شَأْنَهُ. (*).

(*): مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةٍ: «مَفَاتِيحُ الرِّزْقِ: الْإِسْتِغْفَارُ وَالتَّوْبَةُ» - الْأَحَدُ ٢١ مِنْ سُؤَالِ

إِنَّ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ -تَعَالَى- وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ: أَنْ فَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ التَّوْبَةِ وَالْإِسْتِغْفَارِ؛
 حَيْثُ يَقُولُ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ-: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا
 مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

«هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ دَعْوَةٌ لِجَمِيعِ الْعُصَاةِ مِنَ الْكُفْرَةِ وَعَيْرِهِمْ إِلَى التَّوْبَةِ
 وَالْإِنَابَةِ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ تَابَ مِنْهَا وَرَجَعَ عَنْهَا؛ وَإِنْ
 كَانَتْ مَهْمَا كَانَتْ، وَإِنْ كَثُرَتْ وَكَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ، وَلَا يَصِحُّ حَمْلُ هَذِهِ الْآيَةِ
 عَلَى غَيْرِ تَوْبَةٍ؛ لِأَنَّ الشَّرْكَ لَا يُغْفَرُ لِمَنْ لَمْ يَتُبْ مِنْهُ» (١).

«يُخْبِرُ -تَعَالَى- عِبَادَهُ الْمُسْرِفِينَ بِسَعَةِ كَرَمِهِ، وَيَحْتَثُّهُمْ عَلَى الْإِنَابَةِ قَبْلَ الْآلَا
 يُمَكِّنُهُمْ ذَلِكَ؛ فَقَالَ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ مِنَ الدُّعَاةِ لِلدِّينِ اللَّهُ
 مُخْبِرًا لِلْعِبَادِ عَنْ رَبِّهِمْ: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ بِاتِّبَاعِ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ
 أَنفُسُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالسَّعْيِ فِي مَسَاخِطِ عِلَامِ الْغُيُوبِ ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ
 اللَّهِ﴾ آي: لَا تَيْأَسُوا مِنْهَا، فَتَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَتَقُولُوا: قَدْ كَثُرَتْ ذُنُوبُنَا،
 وَتَرَاكَمَتْ عُيُوبُنَا، فَلَيْسَ لَهَا طَرِيقٌ يُزِيلُهَا وَلَا سَبِيلٌ يَصْرِفُهَا، فَتَبْقُونَ بِسَبَبِ ذَلِكَ
 مُصْرَبِينَ عَلَى الْعِصْيَانِ، مُتَزَوِّدِينَ مَا يُغْضِبُ عَلَيْكُمْ الرَّحْمَنَ، وَلَكِنْ اعْرِفُوا رَبَّكُمْ
 بِأَسْمَائِهِ الدَّالَّةِ عَلَى كَرَمِهِ وَجُودِهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ مِنَ الشَّرْكَ،
 وَالْقَتْلِ، وَالزَّوْنِي، وَالرَّبِّي، وَالظُّلْمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الذُّنُوبِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٥٣] آي: وَصَفُهُ الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ؛ وَصِفَانِ لَازِمَانِ
 ذَاتِيَّانِ، لَا تَنْفَكُ ذَاتُهُ عَنْهُمَا، وَلَمْ تَزَلْ آثَارُهُمَا سَارِيَةً فِي الْوُجُودِ، مَالِيَةً لِلْمَوْجُودِ،

(١) «تفسير ابن كثير» (٧ / ٩٥).

تَسْحُ يَدَاهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَيُوَالِي النِّعَمَ عَلَى الْعِبَادِ وَالْفَوَاضِلِ فِي السِّرِّ وَالْجَهَارِ، وَالْعَطَاءُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْمَنْعِ، وَالرَّحْمَةُ سَبَقَتْ الْغَضَبَ وَغَلَبَتْهُ؛ وَلَكِنْ لِمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَيُنِيلُهُمَا أَسْبَابٌ إِنْ لَمْ يَأْتِ بِهَا الْعَبْدُ فَقَدْ أَغْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، أَعْظَمَهَا وَأَجَلَّهَا؛ بَلْ لَا سَبَبَ لَهَا غَيْرُهُ: الْإِنَابَةُ إِلَى اللَّهِ -تَعَالَى- بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، وَالِدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ، وَالتَّأَلُّهِ وَالتَّعَبُّدِ؛ فَهَلُمَّ إِلَى هَذَا السَّبَبِ الْأَجَلِّ وَالطَّرِيقِ الْأَعْظَمِ»^(١).

وَقَالَ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مَنَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾^(٣)

[هود: ٣].

«أَيُّ: وَأَمْرُكُمْ بِالْإِسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ، وَالتَّوْبَةِ مِنْهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ، وَأَنْ تَسْتَمِرُّوا عَلَىٰ ذَلِكَ؛ ﴿يُمْنِعْكُمْ مَنَعًا حَسَنًا﴾ أَيُّ: فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أَيُّ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ»^(٢).

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾: عَمَّا صَدَرَ مِنْكُمْ مِنَ الذُّنُوبِ، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَ مِنْ أَعْمَارِكُمْ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِ، بِالْإِنَابَةِ وَالرُّجُوعِ عَمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ إِلَىٰ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ.

ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ فَقَالَ: ﴿يُمْنِعْكُمْ مَنَعًا حَسَنًا﴾ أَيُّ: يُعْطِيكُمْ مِنْ رِزْقِهِ مَا تَمْتَعُونَ بِهِ وَتَتَفَعَّلُونَ ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَيُّ: إِلَىٰ وَقْتِ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٨٥٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤ / ٢٦٣).

وَفَاتِكُمْ ﴿وَيُوتُ﴾ مِنْكُمْ ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ ﴿أَيُّ: يُعْطِي أَهْلَ الْإِحْسَانِ وَالْبِرِّ مِنْ فَضْلِهِ وَبِرِّهِ مَا هُوَ جَزَاءٌ لِإِحْسَانِهِمْ مِنْ حُصُولِ مَا يُحِبُّونَ، وَدَفْعِ مَا يَكْرَهُونَ.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: عَمَّا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ؛ بَلْ أَعْرَضْتُمْ عَنْهُ، وَرَبَّمَا كَذَّبْتُمْ بِهِ ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ ﴿٣﴾: وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَجْمَعُ اللَّهُ فِيهِ الْأَوْلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَيُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ﴿١﴾.

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِيَّاكَ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿١٦﴾ [النساء: ١٠٦].

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ﴾ مِمَّا صَدَرَ مِنْكَ إِنْ صَدَرَ ﴿إِيَّاكَ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿١٦﴾ ﴿أَيُّ: يَغْفِرُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ لِمَنِ اسْتَغْفَرَهُ، وَتَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ، وَيُوفِّقُهُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ بَعْدَ ذَلِكَ الْمُوجِبِ لِثَوَابِهِ وَزَوَالِ عِقَابِهِ﴾ ﴿٢﴾.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿١١٠﴾ [النساء: ١١٠].

«مَنْ تَجَرَّأَ عَلَى الْمَعَاصِي، وَاقْتَحَمَ عَلَى الْإِثْمِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ اللَّهُ اسْتِغْفَارًا تَامًا يَسْتَلْزِمُ الْإِفْرَارَ بِالذَّنْبِ، وَالنَّدَمَ عَلَيْهِ، وَالْإِقْلَاعَ وَالْعَزْمَ عَلَى الْأَلَّا يَعُودَ؛ فَهَذَا قَدْ وَعَدَهُ مَنْ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، فَيَغْفِرُ لَهُ مَا صَدَرَ مِنْهُ مِنَ الذَّنْبِ، وَيُزِيلُ عَنْهُ مَا تَرْتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ، وَيُعِيدُ إِلَيْهِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَيُوفِّقُهُ فِيمَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنْ عُمْرِهِ، وَلَا يَجْعَلُ ذَنْبَهُ حَائِلًا عَنْ تَوْفِيقِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ غَفَرَهُ، وَإِذَا غَفَرَهُ غَفَرَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٣٣).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٢١٦).

وَاعْلَمْ أَنَّ عَمَلَ السُّوءِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَشْمَلُ سَائِرَ الْمَعَاصِي؛ الصَّغِيرَةَ وَالْكَبِيرَةَ، وَسُمِّيَ (سُوءًا)؛ لِكَوْنِهِ يَسُوءُ عَامِلَهُ بِعُقُوبَتِهِ، وَلِكَوْنِهِ فِي نَفْسِهِ سَيِّئًا غَيْرَ حَسَنٍ.

وَكَذَلِكَ ظَلَمَ النَّفْسِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَشْمَلُ ظُلْمَهَا بِالشَّرِكِ فَمَا دُونَهُ؛ وَلَكِنْ عِنْدَ اقْتِرَانِ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ قَدْ يُفَسَّرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِمَا يُنَاسِبُهُ، فَيُفَسَّرُ عَمَلُ السُّوءِ هُنَا بِالظُّلْمِ الَّذِي يَسُوءُ النَّاسَ، وَهُوَ ظَلْمُهُمْ فِي دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ.

وَيُفَسَّرُ ظَلَمَ النَّفْسِ بِالظُّلْمِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عَبْدِهِ، وَسُمِّيَ ظَلَمَ النَّفْسِ ظُلْمًا؛ لِأَنَّ نَفْسَ الْعَبْدِ لَيْسَتْ مِلْكًا لَهُ يَتَصَرَّفُ فِيهَا بِمَا يَشَاءُ، وَإِنَّمَا هِيَ مِلْكٌ لِلَّهِ -تَعَالَى- قَدْ جَعَلَهَا أَمَانَةً عِنْدَ الْعَبْدِ، وَأَمْرَهُ أَنْ يُقِيمَهَا عَلَى طَرِيقِ الْعَدْلِ، بِالزَّمَامِ لِلصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ عِلْمًا وَعَمَلًا، فَيَسْعَى فِي تَعْلِيمِهَا مَا أَمَرَ بِهِ، وَيَسْعَى فِي الْعَمَلِ بِمَا يَجِبُ، فَسَعِيهِ فِي غَيْرِ هَذَا الطَّرِيقِ ظَلَمٌ لِنَفْسِهِ، وَخِيَانَةٌ وَعُدُولٌ بِهَا عَنِ الْعَدْلِ الَّذِي ضِدُّهُ الْجَوْرُ وَالظُّلْمُ» (١).

«وَأَخْبَرَنَا -سُبْحَانَهُ- أَنَّهُ ذُو الرَّحْمَةِ؛ فَكَانَ صَاحِبَ الرَّحْمَةِ الْحَقِيقِيَّةِ الْعَظِيمَةِ الْوَاسِعَةِ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾

[الأنعام: ١٤٧].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

فَلَا مَخْلُوقَ إِلَّا وَقَدْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ، وَعَمَرَهُ فَضْلُهُ -تَعَالَى- -وَإِحْسَانُهُ-.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٢١٧-٢١٨).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فِيمَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» (١) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله وسلاماته عليه: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي». (*)

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ (٣) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلوات الله وسلاماته عليه يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أْبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا؛ لَا تَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةٌ». (* / ٢).



(١) «صحيح البخاري»: (٦/٢٨٧، رقم ٣١٩٤)، و«صحيح مسلم»: (٤/٢١٠٧-٢١٠٨، رقم ٢٧٥١).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ بِاخْتِصَارِ يَسِيرٍ مِنْ سِلْسِلَةٍ: «مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى» (الْمَحَاضِرَةُ الثَّلَاثَةُ) - الْأَحَدُ ١٣ مِنْ رَجَبِ ١٤٣٣ هـ | ٣-٦-٢٠١٢ م.

(٣) «الجامع» للترمذي: (٥/٥٤٨، رقم ٣٥٤٠)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ».

والحديث حسنه لغيره الألباني في «الصحيحة»: (١/٢٤٩، رقم ١٢٧)، وهو بنحوه في «صحيح مسلم»: (٤/٢٠٦٨، رقم ٢٦٨٧)، من رواية: أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، بلفظ: «... وَمَنْ لَقِيتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتَهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةٌ».

(* / ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «مِفْتَاحُ دَعْوَةِ الْمُرْسَلِينَ» - الْجُمُعَةُ ١٠ مِنْ رَجَبِ ١٤٣٥ هـ

الِاسْتِغْفَارُ لُغَةً وَشَرْعًا

«الِاسْتِغْفَارُ لُغَةً: مَصْدَرٌ قَوْلِهِمْ: اسْتَغْفَرَ يَسْتَغْفِرُ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ مَادَّةِ (غ ف ر) الَّتِي تَدُلُّ عَلَى السَّتْرِ فِي الْغَالِبِ الْأَعْمِّ.

فَالْغُفْرُ: السَّتْرُ، وَالْغُفْرُ وَالْغُفْرَانُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، يُقَالُ: غَفَرَ اللَّهُ ذَنْبَهُ غُفْرًا وَمَغْفِرَةً وَغُفْرَانًا.

قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ: «أَصْلُ الْغُفْرِ: التَّغْطِيَةُ وَالسَّتْرُ.

يُقَالُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا مَغْفِرَةً وَغُفْرًا وَغُفْرَانًا؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْغُفُورُ الْغُفَّارُ يَا أَهْلَ الْمَغْفِرَةِ.

غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ أَي: سَتَرَهَا.

وَاسْتَغْفَرَ اللَّهُ مِنْ ذَنْبِهِ وَلِذَنْبِهِ بِمَعْنَى، فَغَفَرَ لَهُ ذَنْبَهُ مَغْفِرَةً وَغُفْرًا وَغُفْرَانًا.

وَتَغْفَرَا: دَعَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ بِالْمَغْفِرَةِ.

وَامْرَأَةٌ غُفُورٌ - بَعِيرٌ هَاءٍ - (١).

(١) «لسان العرب» (٥ / ٢٥-٢٦) باختصار.

وَقَالَ الرَّاعِبُ: «الْغَفْرُ: إِبْسَاسٌ مَا يَصُونُهُ عَنِ الدَّنَسِ، وَمِنْهُ قِيلَ: اغْفِرْ ثُوبَكَ فِي الدُّعَاءِ وَاصْبُغْ ثُوبَكَ فَإِنَّهُ اغْفِرَ لِلْوَسَخِ، وَالْغُفْرَانُ وَالْمَغْفِرَةُ مِنَ اللَّهِ هُوَ أَنْ يَصُونَ الْعَبْدَ مِنْ أَنْ يَمَسَّهُ الْعَذَابُ، وَالِاسْتِغْفَارُ طَلَبُ ذَلِكَ بِالْمَقَالِ وَالْفِعَالِ، وَقِيلَ: اغْفِرُوا هَذَا الْأَمْرَ بِغُفْرَتِهِ أَيِ: اسْتُرُوهُ بِمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَرَبِهِ» (١).

الْغُفُورُ وَالْغَفَّارُ وَغَايِرُ الذَّنْبِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ -تَعَالَى-، الْغُفُورُ الْغَفَّارُ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ-، وَهُمَا مِنْ أَبْنِيَةِ الْمُبَالَغَةِ، وَمَعْنَاهُمَا: السَّاتِرُ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ، الْمُتَجَاوِزُ عَنْ خَطَايَاهُمْ وَذُنُوبِهِمْ.

الْغَفَّارُ: هُوَ الَّذِي أَظْهَرَ الْجَمِيلَ، وَسَتَرَ الْقَبِيحَ، وَالذُّنُوبُ مِنْ جُمْلَةِ الْقَبَائِحِ الَّتِي سَتَرَهَا اللَّهُ بِإِسْبَالِ السَّتْرِ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا، وَالتَّجَاوُزِ عَنْ عُقُوبَتِهَا فِي الْآخِرَةِ. وَالْغَفْرُ هُوَ السَّتْرُ.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْغَفَّارُ: هُوَ الَّذِي يَغْفِرُ ذُنُوبَ عِبَادِهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، كُلَّمَا تَكَرَّرَتِ التَّوْبَةُ مِنَ الذَّنْبِ تَكَرَّرَتِ الْمَغْفِرَةُ».

فَالْغَفَّارُ: السَّاتِرُ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ، وَالْمُسْدِلُ عَلَيْهِمْ ثُوبَ عَطْفِهِ وَرَأْفَتِهِ، وَمَعْنَى السَّتْرِ فِي هَذَا: أَنَّهُ لَا يَكْشِفُ أَمْرَ الْعَبْدِ لِخَلْقِهِ، وَلَا يَهْتِكُ سِتْرَهُ بِالْعُقُوبَةِ الَّتِي تَشْهَرُ فِي عِيُونِهِمْ» (٢).

وَالِاسْتِغْفَارُ اصْطِلَاحًا: مِنْ طَلَبِ الْغُفْرَانِ.

(١) «المفردات في غريب القرآن» للأصفهاني (٣٦٢).

(٢) «شأن الدعاء» للخطابي (٥٢-٥٣).

وَالْغُفْرَانُ: تَغْطِيَةُ الذَّنْبِ بِالْعَفْوِ عَنْهُ.

وَهُوَ - أَيْضًا - طَلَبُ ذَلِكَ بِالْمَقَالِ وَالْفِعَالِ.

الْفَرْقُ بَيْنَ الْغُفْرَانِ وَالْعَفْوِ: قَالَ الْكُفَوِيُّ: «إِنَّ الْغُفْرَانَ يَقْتَضِي إِسْقَاطَ الْعِقَابِ، وَنَيْلَ الثَّوَابِ، وَلَا يَسْتَحِقُّهُ إِلَّا الْمُؤْمِنُ، وَلَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي حَقِّ الْبَارِي - تَعَالَى -، وَالْعَفْوُ يَقْتَضِي إِسْقَاطَ اللَّوْمِ وَالنَّدَمِ، وَلَا يَقْتَضِي نَيْلَ الثَّوَابِ، وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْعَبْدِ - أَيْضًا -.

وَقَالَ أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ: لَا يُقَالُ: (غَفَرَ زَيْدٌ لَكَ) إِلَّا شَاذًا قَلِيلًا، وَالشَّاهِدُ عَلَى شُدُودِهِ أَنَّهُ لَا يَتَصَرَّفُ فِي صِفَاتِ الْعَبْدِ كَمَا يَتَصَرَّفُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ - تَعَالَى -، أَلَا تَرَى أَنَّهُ يُقَالُ: اسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ - تَعَالَى -، وَلَا يُقَالُ: اسْتَغْفَرْتُ زَيْدًا، وَالْمَحْوُ أَعَمُّ مِنَ الْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ»^(١).

وَأَمَّا الْفَرْقُ بَيْنَ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ:

وَرَدَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ ذِكْرُ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ مُنْفَرِدَيْنِ وَمُقْتَرِنَيْنِ.

فَأَمَّا وُرُودُ كَلِمَةِ (التَّوْبَةِ) مُنْفَرِدَةً؛ فَكَمَا فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ

عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ [النساء: ١٧].

وَقَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

﴾ [الأحزاب: ٧٣].

(١) «الكليات للكفوي» (٦٦٦-٦٦٧)، و«الفروق» لأبي هلال (١٩٥).

وَقَالَ -تَعَالَى-: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى: ٢٥].

وَأَمَّا كَلِمَةُ (الِاسْتِغْفَارِ) فَقَدْ وَرَدَتْ مُنْفَرِدَةً، كَمَا فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وَقَالَ -تَعَالَى-: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

وَقَالَ -تَعَالَى-: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح: ١٠].

وَقَالَ -تَعَالَى-: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

وَأَمَّا وُرُودُ كَلِمَةِ (التَّوْبَةِ) مُقْتَرِنَةً بِكَلِمَةِ (الِاسْتِغْفَارِ)؛ فَكَمَا فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٤].

وَقَالَ -تَعَالَى-: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣].

وَقَالَ -تَعَالَى-: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢].

أَمَّا مَعْنَى الْإِسْتِغْفَارِ: فَهُوَ طَلَبُ الْمَغْفِرَةِ، وَالْمَغْفِرَةُ: هِيَ وَقَايَةُ شَرِّ الذُّنُوبِ مَعَ سِتْرِهَا.

وَالِاسْتِغْفَارُ الْمُرْدُ كَالْتَّوْبَةِ؛ بَلْ هُوَ التَّوْبَةُ بِعَيْنِهَا، مَعَ تَضَمُّنِهِ طَلَبَ الْمَغْفِرَةِ مِنْ اللَّهِ، وَهُوَ مَحْوُ الذَّنْبِ، وَإِزَالَةُ أَثَرِهِ، وَوَقَايَةُ شَرِّهِ؛ فَالِاسْتِغْفَارُ يَتَضَمَّنُ التَّوْبَةَ، وَالتَّوْبَةُ تَتَضَمَّنُ الْإِسْتِغْفَارَ، وَكُلُّ مِنْهُمَا يَدْخُلُ فِي مُسَمًى الْآخِرِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ.

أَمَّا إِذَا اقْتَرَنَّا فَيَعْنِي الْإِسْتِغْفَارُ طَلَبَ الْمَغْفِرَةِ مِنَ الذُّنُوبِ الْمَاضِيَةِ بِاللِّسَانِ، وَتَعْنِي التَّوْبَةُ طَلَبَ وَقَايَةِ شَرِّ مَا يَخَافُهُ مِنَ الذُّنُوبِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَإِذَا وَقَعَتْ أَقْلَعَ عَنْهَا بِالْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ.

فَيَتَّضِحُ مِنْ هَذَا أَنَّ لَفْظَ الْإِسْتِغْفَارِ إِذَا جَاءَ مُفْرَدًا يُرَادُ بِهِ التَّوْبَةُ، وَكَذَلِكَ لَفْظُ التَّوْبَةِ إِذَا جَاءَ مُفْرَدًا يُرَادُ بِهِ الْإِسْتِغْفَارُ، وَالِدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ: قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾

[آل عمران: ١٣٥].

فَجَاءَ مَعْنَى كَلِمَةِ: «اسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ» أَي: أَفْلَعُوا عَنِ الذَّنْبِ، وَتَابُوا وَأَنَابُوا، أَي: فَسَّرَ الْإِسْتِغْفَارُ بِالتَّوْبَةِ، وَلَوْ تَبَعْنَا الْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرْتُ الْإِسْتِغْفَارَ مُنْفَرِدًا لَتَبَيَّنَ لَنَا ذَلِكَ. (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُحَاضِرَةً: «مَا الْفَرْقُ بَيْنَ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ» - الْأَحَدُ ٧ مِنَ الْمُحَرَّمِ

١٤٤٣هـ | ١٥-٨-٢٠٢١م.

الِاسْتِغْفَارُ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

لَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِالِاسْتِغْفَارِ؛ فَاللَّهُ يَغْفِرُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ لِمَنِ اسْتَغْفَرَهُ، وَتَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ، وَيُوفِّقُهُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَوْجِبِ لِثَوَابِهِ، وَزَوَالَ عِقَابِهِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٠٦) [النساء: ١٠٦].

«وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ مِمَّا هَمَمْتَ بِهِ» (١)، مِمَّا يُعَدُّ بِالنِّسْبَةِ لِمَنْصِبِكَ الرَّفِيعِ ذَنْبًا؛ يَغْفِرِ اللَّهُ لَكَ؛ إِنَّ اللَّهَ كَانَ كَثِيرَ السِّرِّ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ، دَائِمَ الرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْأَمْرُ فِي ظَاهِرِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ فِي عُمُومِهِ لِكُلِّ أُمَّتِهِ، وَلِكُلِّ قَاضٍ يَفْصِلُ بَيْنَ النَّاسِ. (*).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠) [النساء: ١١٠].

وَمَنْ يَعْمَلْ عَمَلًا سَيِّئًا مِنَ الصَّغَائِرِ أَوْ الْكِبَائِرِ يُدْرِكُ النَّاسَ فُبْحَهُ، وَيَسُوؤُهُمْ أَنْ يَرْتَكِبَهُ، أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ بِارْتِكَابِ الْمَعَاصِي فِيَمَا يَخْتَصُّ بِهِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ مِنْ

(١) «مختصر تفسير البغوي»: (١ / ٢٠٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [النساء:

ذُنُوبِهِ وَظَلَمَ نَفْسِهِ بِمَعْصِيَةِ رَبِّهِ، مَعَ النَّدَمِ وَالْعَزْمِ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ؛ يَجِدُ اللَّهُ كَثِيرَ السِّرِّ لَهُ، دَائِمَ الرَّحْمَةِ بِهِ، يَعْفُو عَنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ (١). (*) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

«اطْلُبْ مِنَ اللَّهِ الْمَغْفِرَةَ لِدُنُوبِكَ؛ بَأَنَّ تَفَعَلَ أَسْبَابَ الْمَغْفِرَةِ مِنَ التَّوْبَةِ، وَالِدُعَاءِ بِالْمَغْفِرَةِ، وَالْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ، وَتَرْكِ الذُّنُوبِ، وَالْعَفْوِ عَنِ الْجَرَائِمِ.

وَاسْتَغْفِرْ - أَيْضًا - لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ؛ فَإِنَّهُمْ - بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمْ - كَانَ لَهُمْ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ.

وَمِنْ جُمْلَةِ حُقُوقِهِمْ: أَنْ يَدْعُوا لَهُمْ وَيَسْتَغْفِرَ لِدُنُوبِهِمْ، وَإِذَا كَانَ مَأْمُورًا بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ الْمُتَضَمِّنِ لِإِزَالَةِ الذُّنُوبِ وَعُقُوبَاتِهَا عَنْهُمْ؛ فَإِنَّ مِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ: النَّصْحَ لَهُمْ، وَأَنْ يُحِبَّ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَيَكْرَهُ لَهُمْ مِنَ الشَّرِّ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِمَا فِيهِ الْخَيْرُ لَهُمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا فِيهِ ضَرَرُهُمْ، وَيَعْفُو عَنْ مَسَاوِيهِمْ وَمَعَايِبِهِمْ، وَيَحْرِصَ عَلَى اجْتِمَاعِهِمْ اجْتِمَاعًا تَتَأَلَّفُ بِهِ قُلُوبُهُمْ، وَيَزُولُ مَا بَيْنَهُمْ مِنَ الْأَحْقَادِ الْمُفْضِيَةِ لِلْمُعَادَاةِ وَالشَّقَاقِ الَّذِي بِهِ تَكْتُمُ ذُنُوبُهُمْ وَمَعَاصِيَهُمْ» (٣).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ﴿٢﴾

[النصر: ٣].

(١) «المختصر في تفسير القرآن»: (١ / ٩٦)، بتصرف يسير وزيادة تعليق.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيْقُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [النساء:

[١١٠].

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٩٢٨).

«عَهَدَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ الْأُمُورَ الْفَاضِلَةَ تُخْتَمُ بِالْإِسْتِغْفَارِ؛ كَالصَّلَاةِ وَالْحَجِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَأَمَرَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ بِالْحَمْدِ وَالْإِسْتِغْفَارِ فِي هَذِهِ الْحَالِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ أَجَلَ قَدِ انْتَهَى؛ فَلَيْسَتْ عِدَّةٌ وَيَتَهَيَّأُ لِلِقَاءِ رَبِّهِ، وَيَخْتِمُ عُمُرَهُ بِأَفْضَلِ مَا يَجِدُهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -.

«فَكَانَ ﷺ يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ، وَيَقُولُ ذَلِكَ فِي صَلَاتِهِ، يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» (١) (٢).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥) [آل عمران: ١٣٥].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أَي: صَدَرَ مِنْهُمْ أَعْمَالٌ سَيِّئَةٌ كَبِيرَةٌ أَوْ مَا دُونَ ذَلِكَ؛ بَادَرُوا إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِسْتِغْفَارِ، وَذَكَرُوا رَبَّهُمْ وَمَا تَوَعَّدَ بِهِ الْعَاصِينَ، وَوَعَدَ بِهِ الْمُتَّقِينَ، فَسَأَلُوهُ الْمَغْفِرَةَ لِذُنُوبِهِمْ، وَالسَّتْرَ لِعُيُوبِهِمْ، مَعَ إِقْلَاعِهِمْ عَنْهَا، وَنَدَمِهِمْ عَلَيْهَا؛ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥) (٣).

(١) أخرجه البخاري (٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١١٠٦).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٥٧).

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي الاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ:

مِنْهَا: قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «وَاللَّهِ! إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(١). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا رَأَيْتُ أَكْثَرَ اسْتِغْفَارًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ».

قَالَ الْعُلَمَاءُ: «الِاسْتِغْفَارُ الْمَطْلُوبُ هُوَ الَّذِي يَحُلُّ عُقْدَ الْإِصْرَارِ، وَيُثَبِّتُ مَعْنَاهُ فِي الْجَنَانِ، لَيْسَ بِالتَّلَفُّظِ بِاللِّسَانِ».

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةً»^(٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ: اسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؛ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَإِنْ كَانَ فَرًّا مِنَ الزَّحْفِ»^(٣). أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»: (١١ / ١٠١، رَقْم ٦٣٠٧)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ»: (٤ / ٢٠٧٥، رَقْم ٢٧٠٢)، مِنْ حَدِيثِ: الْأَعْرَسِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، يُحَدِّثُ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ... الْحَدِيثُ».

وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ أَيْضًا: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَيَّ قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةً». (لَيُغَانُ) أَي: يَغْشَى الْقَلْبَ مَا يَغْطِيهِ.

انظر «تفسير غريب ما في الصحيحين»: (١ / ٤٩٣، رَقْم ١٦٣).

(٣) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «المستدرک» (١ / ٦٩٢)، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «الدعوات» (١٦١)،

وَالْتِّرْمِذِيُّ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَوَأَفَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

قَوْلُهُ: «فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ» قَالَ الطَّبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (١): «الزَّحْفُ: الْجَيْشُ الْكَثِيرُ الَّذِي يُرَى لِكَثْرَتِهِ كَأَنَّهُ يَزْحَفُ».

وَقَالَ الْمُظَفَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ (٢): «هُوَ اجْتِمَاعُ الْجَيْشِ فِي وَجْهِ الْعَدُوِّ -أَي: مِنْ حَرْبِ الْكُفَّارِ-؛ حَيْثُ لَا يَجُوزُ الْفِرَارُ».

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ؛ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ» (٣). أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَالْحَاكِمُ مِنْ رِوَايَةِ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

قَوْلُهُ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ»: الْحِكْمَةُ فِي قُرْبِ الرَّبِّ مِنَ الْعَبْدِ فِي هَذَا الْوَقْتِ: أَنَّ هَذَا الْوَقْتِ وَقْتُ نِدَاءِ الرَّبِّ، أَلَّا تَرَى إِلَى حَدِيثِ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا

وغيرهما، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، ثَلَاثًا غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ، وَإِنْ كَانَ فَارًّا مِنَ الزَّحْفِ»، وَهُوَ صَحِيحٌ لَشَوَاهِدِهِ، وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (١٥١٧)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٥٧٧)، وَغَيْرُهُمَا عَنِ زَيْدِ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دُونَ قَوْلِهِ «ثَلَاثًا»، وَالحَدِيثُ صَحَّحَهُ الْعَلَمَةُ الْأَلْبَانِيُّ بِشَوَاهِدِهِ. «الصَّحِيحَةُ» (٦/٢٢٦، ح ٢٧٢٧).

(١) «مرقاة المفاتيح» للهروي (٤/١٦٣١)

(٢) «المصدر السابق» (٤/١٦٣١).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٧٩)، والنسائي (٥٧٢)، والحاكم (١١٦٢)، وغيرهم، وصححه الألباني في «الكلم الطيب» ص ٨٦.

كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ» (١)، فَيَكُونُ الرَّبُّ فِي هَذَا الْوَقْتِ قَرِيبًا مِنْ عَبْدِهِ، وَلَا يَنَالُ هَذَا الْحَظَّ الْوَافِرَ إِلَّا مَنْ لَهُ اسْتِعْدَادٌ وَتَرَقُّبٌ لِتَحْصِيلِ هَذِهِ الْفَائِدَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَنْبَنِي عَلَيْهَا الْمَنَافِعُ الدِّيْنِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ.

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّهُ لَيَعْنَانُ عَلَيَّ قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ» (٢).
رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَهُوَ مِنْ رِوَايَةِ الْأَغْرَ الْمُرْزَبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ: «لَيَعْنَانُ» قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: «لَيَعْنَانُ عَلَيَّ قَلْبِي» أَي: لَيَغْطِي وَيُعْشَى، وَالْمُرَادُ بِهِ: السَّهُوُ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ لَا يَزَالُ فِي مَزِيدٍ مِنَ الذِّكْرِ وَالْقُرْبَةِ، وَدَوَامِ الْمُرَاقَبَةِ، فِإِذَا سَهَا عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ أَوْ نَسِيَ عَدَّهُ ذَنْبًا عَلَيَّ نَفْسِهِ، فَفَزَعَ إِلَى الْإِسْتِغْفَارِ. (*)

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنْ كُنَّا لِنَعُدُّ فِي الْمَجْلِسِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (٤) مِئَةَ مَرَّةٍ. أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَهَ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ».

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي»: اسْتِغْفَارُ الْأَنْبِيَاءِ، دَلَّ عَلَيْهِ مَا كَانَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كَانُوا يُكْثِرُونَ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ؛

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاصِرَةِ: «مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ» - الثَّلَاثَاءُ ٢٤ مِنْ ذِي

الْحِجَّةِ ١٤٤٢ هـ | ٣-٨-٢٠٢١ م.

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧٠٢).

لِإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ لِلْعَزِيزِ الْقَهَّارِ.

وَكَذَا بِالْإِعْتِرَافِ بِالْعَجْزِ وَالْقُصُورِ عَمَّا وَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَدَاءِ حَقِّ الْخَلَاقِ الْعَظِيمِ، وَلِتَعْلِيمِ أُمَّهَمِ مَا يَنْبَغِي عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَذَلَّةِ وَالْخُضُوعِ وَالرُّكُونِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَالْخُلُوصِ مِنْ حَظِّ النَّفْسِ، وَمِنْ الرُّكُونِ إِلَيْهَا.

«رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ»؛ أَي: ارْجِعْ عَلَيَّ بِالرَّحْمَةِ، وَوَقِّفْنِي لِلتَّوْبَةِ، أَوْ اقْبَلْ تَوْبَتِي (١).

«إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»: وَمِنْ الْمَعْلُومِ: أَنَّهُ مِمَّا يَنْبَغِي فِي الدُّعَاءِ، وَمِنْ اسْتِعْمَالِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى فِيهِ: أَنْ يَجْتَهِدَ الْإِنْسَانُ فِي الْإِتْيَانِ بِمَا يُنَاسِبُ مَا يَطْلُبُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى.

فَإِذَا طَلَبَ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الرِّزْقَ قَالَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي يَا رَزَّاقُ يَا كَرِيمُ، وَإِذَا طَلَبَ مِنَ اللَّهِ -تَعَالَى- الْحِفْظَ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ «الْحَفِيزُ»: يَا حَفِيزُ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي.

يَا قَوِي قَوْنِي، يَا عَلِيمُ عَلَّمْنِي.

فَالنَّبِيُّ ﷺ ذَكَرَ مَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ فِي الطَّلَبِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، فَقَالَ ﷺ مُسْتَعْفِرًا وَرَاجِعًا إِلَى اللَّهِ وَمُنِيبًا إِلَيْهِ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

(١) «مرقاة المفاتيح»: (٤ / ١٦٣١)، و«وعون المعبود»: (٤ / ٢٦٦).

«تُوبُوا إِلَى اللَّهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ» (١). أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

فَكَانَ ﷺ - كَمَا دَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ - يُكْثِرُ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ؛
شُكْرًا عَلَى مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي لَا تُحْصَى. (*).

وَعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أْبُوءُ
لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأْبُوءُ لَكَ بِذُنُوبِي فَأَعْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ،
أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ.

إِذَا قَالَ ذَلِكَ حِينَ يُمَسِّي فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِذَا قَالَ
ذَلِكَ حِينَ يُصْبِحُ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ مِثْلَهُ» (٣).

هَذَا سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ، فَهُوَ أَكْثَرُ نَفْعًا لِمَنْ يَسْتَغْفِرُ بِهِذِهِ الصِّيغَةَ، فَلَا بُدَّ أَنْ
يُرَاعِيَ الْمَرْءُ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَحْرِصُ عَلَى جَوَامِعِ الْكَلِمِ.

«سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ»؛ لِأَنَّ الْمَرْءَ يُمَكِّنُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ هَكَذَا، يَقُولُ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»،
وَيُمَكِّنُ أَنْ يَقُولَ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ»، فَآتَى بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ مُتَّصِمٍ لِصِفَةٍ
مِنْ صِفَاتِ رَبَّنَا، وَهِيَ الْعَظَمَةُ؛ فَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا أَعْلَى مِنَ الْأَوَّلِ.

(١) تقدم تخريجه.

(* ما مرَّ ذكره مختصر من: «شرح الأدب المفرد» (ص ٢٦٩٨-٢٧٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

فَإِذَا أَتَى بِسَيِّدِ الْإِسْتِغْفَارِ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي...»؛ كَانَ أَعْلَى وَأَجَلَّ، إِذَا قَالَه -وَهِيَ مِنْ أَذْكَارِ الصَّبَاحِ- بِالصَّبَاحِ، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ الْمَسَاءِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهِيَ -أَيْضًا- مِنْ أَذْكَارِ الْمَسَاءِ، فَإِذَا قَالَهَا مِنْ لَيْلَتِهِ، فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ دَخَلَ الْجَنَّةَ؛ لِمَا تَضَمَّنَ الْحَدِيثُ مِنَ الْمَعَانِي الْجَلِيلَةِ.

«وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ» أَي: أَنَا عَلَى مَا عَاهَدْتُكَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِكَ، وَإِخْلَاصِ الطَّاعَةِ لَكَ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ مُقِيمٌ مَا اسْتَطَعْتُ.

«أَبَوْ لَكَ» أَي: أَعْتَرَفُ.

«أَبَوْ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبَوْ لَكَ بِذَنْبِي»: وَهَذَا فِيهِ جَنَاحَا السُّلُوكِ إِلَى اللَّهِ -تَعَالَى-؛ لِأَنَّ السَّالِكَ إِلَى اللَّهِ -تَعَالَى- يَسْلُكُ بِجَنَاحَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مُطَالَعَةُ الْمِنَّةِ.

الثَّانِي: مُطَالَعَةُ عَيْبِ النَّفْسِ.

«أَبَوْ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبَوْ لَكَ بِذَنْبِي»: الذَّنْبُ ذَنْبِي، وَالتَّقْصِيرُ تَقْصِيرِي، وَالْإِثْمُ مِنِّي، وَالنِّعْمَةُ مِنْكَ، وَالتَّفْضِيلُ وَالْغُفْرَانُ مِنْكَ وَحُدُكَ، فَاسْتَدَّ إِلَيْهِ كُلُّ مَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ.

مِنْ شُرُوطِ الْإِسْتِغْفَارِ: صِحَّةُ النِّيَّةِ؛ لِقَوْلِهِ: «مُوقِنًا بِهَا» فِي لَفْظِ فِي «الصَّحِيحِ».

«مَنْ مَاتَ مُوقِنًا بِهَا» أَي: مُخْلِصًا لِلَّهِ مِنْ قَلْبِهِ، مُصَدِّقًا بِثَوَابِهَا.

مَا يُؤْخَذُ مِنَ الْحَدِيثِ:

- ١- الْحَثُّ عَلَى الْإِسْتِغْفَارِ، وَبَيَانُ عَظِيمِ فَضْلِهِ.
- ٢- الْإِقْرَارُ لِلَّهِ وَحْدَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ.
- ٣- الْإِسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ مَا جَنَى الْعَبْدُ عَلَى نَفْسِهِ.
- ٤- إِضَافَةُ النِّعَمَاءِ إِلَى مُوجِدِهَا وَالْمُنْعِمِ بِهَا، وَإِضَافَةُ الذَّنْبِ إِلَى نَفْسِهِ.
- ٥- التَّوَجُّهُ إِلَى اللَّهِ، وَالْأَدَبُ مَعَ اللَّهِ ﷻ، وَالتَّأَدُّبُ فِي الدُّعَاءِ، وَعَدَمُ التَّجَاوُزِ وَالْإِعْتِدَاءِ. (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ دَرَسٍ: «الْإِسْتِغْفَارُ وَالتَّوْبَةُ».

حَقِيقَةُ الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ

كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَرَى أَنَّ الْإِسْتِغْفَارَ وَالتَّوْبَةَ هُمَا بِاللِّسَانِ وَحْدَهُ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، وَرُبَّمَا كَانَ يَرُدُّ ذَلِكَ بِلِسَانِهِ وَهُوَ نَازِلٌ إِلَى الْمَعَاصِي، أَوْ مُسْتَمِعٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَثَامِ وَالدُّنُوبِ، أَوْ تَكُونُ جَوَارِحُهُ وَالْغَةَ فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَهُوَ يَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ!

فَلَا يُوجَدُ لِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَثَرٌ فِي الْقَلْبِ، وَلَا يُشَاهِدُ لَهَا تَأْثِيرٌ عَلَى الْجَوَارِحِ، مِثْلَ هَذَا الْإِسْتِغْفَارِ وَهَذِهِ التَّوْبَةِ عَمَلُ الْكَذَّابِينَ؛ فَقَدْ بَيَّنَّ الْعُلَمَاءُ حَقِيقَةَ الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ.

عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ: قَالَ الرَّاعِبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «التَّوْبَةُ فِي الشَّرْعِ: تَرْكُ الذَّنْبِ لِقُبْحِهِ، وَالنَّدَمُ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ، وَالْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْمُعَاوَدَةِ، وَتَدَارُكُ مَا أَمَكَنَهُ أَنْ يَتَدَارَكَ مِنَ الْأَعْمَالِ بِالْإِعَادَةِ، فَمَتَى اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْأَرْبَعُ فَقَدْ كَمَلَتْ شَرَايِطُ التَّوْبَةِ».

وَبَيَّنَ النَّوَوِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَقِيقَةَ التَّوْبَةِ وَالْإِسْتِغْفَارِ فَقَالَ: «قَالَ الْعُلَمَاءُ: التَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ؛ فَتَأْخِيرُ التَّوْبَةِ بَعْدَ الذَّنْبِ ذَنْبٌ يَحْتَاجُ إِلَى تَوْبَةٍ».

التَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، فَإِذَا وَقَعَ فِي ذَنْبٍ فَأَخَّرَ التَّوْبَةَ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ؛
فَهَذَا ذَنْبٌ آخَرَ يَحْتَاجُ تَوْبَةً أُخْرَى.

فَإِنْ كَانَتِ الْمَعْصِيَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ لَا تَتَعَلَّقُ بِحَقِّ آدَمِيٍّ فَلَهَا ثَلَاثَةُ شُرُوطٍ:
- أَنْ يُقْلَعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ.

- وَأَنْ يَنْدَمَ عَلَىٰ فِعْلِهَا.

- وَأَنْ يَعْزِمَ عَلَىٰ أَلَّا يَعُودَ إِلَيْهَا.

فَإِنْ فَقَدَ أَحَدَ الثَّلَاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوْبَتُهُ.

وَإِنْ كَانَتِ الْمَعْصِيَةُ تَتَعَلَّقُ بِآدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أَرْبَعَةٌ:

هَذِهِ الثَّلَاثَةُ، وَأَنْ يَبْرَأَ مِنْ حَقِّ صَاحِبِهَا، فَإِنْ كَانَتْ مَالًا أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْهِ، وَإِنْ
كَانَتْ حَدًّا كَذْفٍ وَنَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ، أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وَإِنْ كَانَتْ غَيْبَةً اسْتَحَلَّهُ مِنْهَا.

إِنْ لَمْ يَأْتِ بِهِذِهِ الشَّرَائِطِ لَا يُعَدُّ تَائِبًا.

وَهُنَاكَ شَرْطَانِ:

- قَبْلَ هَذَا كُلِّهِ لَا بُدَّ مِنَ الْإِخْلَاصِ؛ أَنْ يَتُوبَ لِلَّهِ، لَا لِجَاهٍ، وَلَا لِرِفْعَةِ مَقَامٍ
عِنْدَ النَّاسِ، وَلَا اسْتِحْيَاءٍ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، وَإِنَّمَا يَتُوبُ لِلَّهِ.

شَرْطُ الْإِخْلَاصِ.

- وَشَرْطٌ بَعْدَ هَذِهِ وَهُوَ مَعَهَا - أَيْضًا - مُلَازِمٌ لَهَا: أَنْ تَكُونَ التَّوْبَةُ فِي الْوَقْتِ
الَّذِي تُقْبَلُ فِيهِ التَّوْبَةُ، وَهُمَا وَفْتَانٍ: خَاصٌّ وَعَامٌّ.

فَأَمَّا الْخَاصُّ: فَهُوَ فِي حَقِّ كُلِّ تَائِبٍ، أَنْ تَكُونَ تَوْبَتُهُ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ الرُّوحُ
الْحُلُقُومَ، فَإِذَا كَانَتِ الرُّوحُ فِي الْعَرْغَرَةِ وَقَالَ: إِنِّي تَائِبٌ؛ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ، هَذَا لَيْسَ
بِوَقْتِ قَبُولِ التَّوْبَةِ.

وَأَمَّا الْوَقْتُ الْعَامُّ: فَخُرُوجُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا.

فَلَا بُدَّ مِنْ هَذِهِ الشَّرَائِطِ حَتَّى يَكُونَ تَائِبًا، أَمَّا أَنْ تَقُولَ: تُبْتُ إِلَى اللَّهِ، تُبْتُ
إِلَى اللَّهِ، تُبْتُ إِلَى اللَّهِ، وَيَبْقَى الْحَالُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ أَوْ أَسْوَأَ؛ فَهَذَا ذَنْبٌ يَحْتَاجُ
إِلَى تَوْبَةٍ.

قَالَ الرَّاعِبُ عَنِ الْإِسْتِغْفَارِ^(١): «طَلَبُ ذَلِكَ بِالْمَقَالِ وَالْفِعْلِ، قَوْلُهُ: ﴿أَسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، لَمْ يُؤْمَرُوا بِأَنْ يَسْأَلُوهُ ذَلِكَ بِاللِّسَانِ فَقَطُّ، بَلْ
بِاللِّسَانِ وَالْفِعْلِ؛ فَقَدْ قِيلَ: الْإِسْتِغْفَارُ بِاللِّسَانِ مِنْ دُونِ ذَلِكَ بِالْفِعَالِ فِعْلُ الْكَذَّابِينَ».
فَهَذِهِ حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ وَحَقِيقَةُ الْإِسْتِغْفَارِ. (*)



(١) «المفردات» (ص: ٦٠٩).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاصِرَةِ: «مَفَاتِيحُ الرِّزْقِ: الْإِسْتِغْفَارُ وَالتَّوْبَةُ» - الْأَحَدُ ٢١ مِنْ سُؤَالِ

الاسْتِغْفَارُ دَابُّ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ

إِنَّ الاسْتِغْفَارَ دَابُّ الْأَنْبِيَاءِ الْمُصْطَفَيْنِ؛ حَيْثُ يَقُولُ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ- عَلَيَّ
لِسَانِ أَبِي الْبَشَرِ آدَمَ وَحَوَّاءَ: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا
لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

«اعْتَرَفَ آدَمُ وَزَوْجَتُهُ حَوَّاءُ بِالذَّنْبِ، وَسَأَلَا مِنَ اللَّهِ مَغْفِرَتَهُ فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا
ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [٢٣] أَيْ: قَدْ فَعَلْنَا الذَّنْبَ
الَّذِي نَهَيْتَنَا عَنْهُ، وَأَضْرَرْنَا بِأَنْفُسِنَا بِاِقْتِرَافِ الذَّنْبِ، وَقَدْ فَعَلْنَا سَبَبَ الْخَسَارِ إِنْ لَمْ
تَغْفِرْ لَنَا بِمَحْوِ أَثْرِ الذَّنْبِ وَعُقُوبَتِهِ، وَتَرْحَمْنَا بِقَبُولِ التَّوْبَةِ وَالْمُعَافَاةِ مِنْ أَمْثَالِ
هَذِهِ الْخَطَايَا، فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا ذَلِكَ» (١).

وَيَقُولُ -سُبْحَانَهُ- عَنْ نُوحٍ عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي
مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨].

«قَوْلُهُ: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دُعَاءٌ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَذَلِكَ
يُعْمُ الْأَحْيَاءَ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتَ؛ وَلِهَذَا يُسْتَحَبُّ مِثْلُ هَذَا الدُّعَاءِ، اقْتِدَاءً بِنُوحٍ عليه السلام،

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٣٢٠).

وَبِمَا جَاءَ فِي الْأَثَارِ وَالْأَدْعِيَةِ الْمَشْهُورَةِ الْمَشْرُوعَةِ» (١).

وَيَقُولُ - تَعَالَى - عَلَى لِسَانِ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤١) [إبراهيم: ٤١].

«دَعَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِنَفْسِهِ وَلِذُرِّيَّتِهِ فَقَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي﴾ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
الْحِسَابُ﴾ (٤١) [إبراهيم: ٤٠-٤١]، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ؛ إِلَّا أَنْ
دُعَاءَهُ لِأَبِيهِ إِنَّمَا كَانَ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ
مِنْهُ» (٢).

وَيَقُولُ - سُبْحَانَهُ - عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا
فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٥١) [الأعراف: ١٥١].

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي ﴾ هَارُونَ ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ﴾ أَي: فِي
وَسَطِهَا، وَاجْعَلْ رَحْمَتَكَ تُحِيطُ بِنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَإِنَّهَا حِصْنٌ حَصِينٌ مِنْ جَمِيعِ
الشُّرُورِ، وَتَمَّ كُلُّ خَيْرٍ وَسُرُورٍ.

﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١٥١) أَي: أَرْحَمُ بِنَا مِنْ كُلِّ رَاحِمٍ، أَرْحَمُ بِنَا مِنْ
أَبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَنْفُسِنَا» (٣).

(١) «تفسير ابن كثير» (٨ / ٢٥٠).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٩٥).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٣٤٤).

﴿وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾﴾ ﴿٢٤﴾﴾

[ص: ٢٤].

﴿وَوَظَنَ دَاوُدُ﴾ حِينَ حَكَمَ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ ﴿أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أَي: اخْتَبَرْنَا هُوَ وَدَبَّرْنَا عَلَيْهِ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ لِيَتَّبِعَهُ ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ لِمَا صَدَرَ مِنْهُ، ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أَي: سَاجِدًا ﴿وَأَنَابَ﴾ لِلَّهِ - تَعَالَى - بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَالْعِبَادَةِ ﴿١﴾.

وَيَقُولُ - تَعَالَى - لِخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

﴿فَاعْلَمْ - أَيُّهَا النَّبِيُّ - أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ، وَاسْتَغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ﴿٢﴾.



(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٨٣٧).

(٢) «التفسير الميسر» (ص: ٥٠٨).

جُمْلَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ الْإِسْتِغْفَارِ

أَمَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا بِالْإِسْتِغْفَارِ، وَأَخْبَرَ -سُبْحَانَهُ- أَنَّهُ كَثِيرُ الْمُغْفِرَةِ لِمَنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ، فَرَعَّبَهُمْ بِمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ حُصُولِ الثَّوَابِ، وَأَنْدِفَاعِ الْعِقَابِ. وَرَعَّبَهُمْ -أَيْضًا- بِخَيْرِ الدُّنْيَا الْعَاجِلِ بِإِرْسَالِ الْمَطَرِ الْمُتَتَابِعِ الَّذِي يَزِيهِ الشَّعَابِ وَالْوَهَادَ، وَيُحْيِي الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ.

وَكَذَلِكَ يُكْثِرُ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي تُدْرِكُونَ بِهَا مَا تَطْلُبُونَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَوْلَادَكُمْ، وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا، وَهَذَا مِنْ أَنْبَغِ مَا يَكُونُ مِنْ لَذَاتِ الدُّنْيَا وَمَطَالِبِهَا^(١). وَمِمَّا يَتَرْتَّبُ عَلَى الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ: أَنْ يُعْطِيَكُمْ مِنْ رِزْقِهِ مَا تَتَمَتَّعُونَ بِهِ وَتَنْتَفِعُونَ إِلَى وَقْتٍ وَفَاتِكُمْ، وَيُعْطِي أَهْلَ الْإِحْسَانِ وَالْبِرِّ مِنْ فَضْلِهِ وَبِرِّهِ مَا هُوَ جَزَاءٌ لِإِحْسَانِهِمْ؛ مِنْ حُصُولِ مَا يُحِبُّونَ، وَدَفْعِ مَا يَكْرَهُونَ^(٢).

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ. وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

(١) «تيسير الكريم الرحمن»: (ص ٨٨٨ - ٨٨٩)، بتصريف واختصار يسير.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن»: (ص ٣٧٦)، بتصريف واختصار يسير.

وَاطْلُبُوا مِنْ رَبِّكُمْ السَّتْرَ لِسَالِفِ ذُنُوبِكُمْ، ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، إِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْتُمْ بِهِ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ، وَأَخْلَصْتُمْ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ -سُبْحَانَهُ-؛ بَسَطَ عَلَيْكُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِ الرِّزْقِ مَا تَعِيشُونَ بِهِ فِي أَمْنٍ وَسَعَةٍ وَخَيْرٍ إِلَى حِينِ الْمَوْتِ، وَإِلَى وَقْتِ انْقِضَاءِ آجَالِكُمْ، وَيُعْطِي كُلَّ ذِي زِيَادَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ فِي الدُّنْيَا أَجْرَهُ، وَثَوَابَهُ فِي الْآخِرَةِ.

وَإِنْ تَدِيرُوا ظُهُورَكُمْ كَافِرِينَ، غَيْرِ مُسْتَجِيبِينَ لِمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْهُدَى؛ فَقُلْ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ. (*)

وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِزِلْ عَلَيْكُمْ غَنًّا وَيُخَفِّضْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢].

فَقُلْتُ -يَعْنِي: نُوْحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِقَوْمِي: ااطْلُبُوا مِنْ رَبِّكُمْ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ بِتَوْبَتِكُمْ عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ وَفُسُوقٍ؛ إِنَّهُ كَانَ وَلَمْ يَزَلْ كَثِيرَ الْمَغْفِرَةِ لِدُنُوبِ مَنْ يَرْجِعُ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ بِالْإِيْمَانِ وَالطَّاعَةِ.

إِنْ تَوَمَّنُوا وَتُسَلِّمُوا، وَتَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ، وَتَتَوَبُّوا إِلَيْهِ؛ يُرْسِلْ عَلَى أَرْضِكُمْ وَبِلَادِكُمْ مَاءَ السَّمَاءِ كَثِيرًا مُتَتَابِعًا فِي مَنَافِعِكُمْ وَسُقْيَاكُمْ، وَيُكثِّرْ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ بَسَاتِينَ تَنْعَمُونَ بِجَمَالِهَا وَثَمَارِهَا، وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا جَارِيَةً؛ لِإِمْتِنَاعِ نَفْسِكُمْ وَأَعْيُنِكُمْ، وَلِسُقْيَا الْأَشْجَارِ وَالزَّرْعِ. (* / ٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيْقُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [هود: ٣].

(* / ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيْقُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [نوح: ١٠].

عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ التَّوْبَةَ مَعَ الْإِسْتِغْفَارِ يَحْصُلُ بِهِمَا الْخَيْرُ الْكَثِيرُ.

التَّوْبَةُ مَعَ الْإِسْتِغْفَارِ يَحْصُلُ بِوُجُودِهِمَا نَزْوُلُ الْعَيْثِ النَّافِعِ الْمِدْرَارِ،
وَحُصُولُ الْقُوَّةِ فِي جَانِبِهَا الْمَادِّيِّ وَالرُّوحِيِّ.

وَهِيَ فِي جَانِبِهَا الْمَادِّيِّ وَجُودُ الْمَالِ وَالرَّجَالِ، وَفِي جَانِبِهَا الرُّوحِيِّ طَهَارَةُ
النُّفُوسِ، وَسَلَامَةُ الْقُلُوبِ وَصِحَّتُهَا، وَذَلِكَ هُوَ مَطْلَبُ الْمُجْتَمَعَاتِ السَّلِيمَةِ فِي
كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وَإِذَا كَانَتْ حَقَائِقُ الْقُرْآنِ الْعَالِيَةِ الْخَالِدَةِ تَبَيَّنَ أَنَّ سَبِيلَ تَحْصِيلِ الْحَيَاةِ
الْمُتَّصِفَةِ بِالْخَيْرِ وَالْقُوَّةِ يُبْدَأُ مِنْ بَوَابَةِ الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ، بِمَا يَدُلُّانِ عَلَيْهِ مِنْ مَعَانِي
وَاسِعَةٍ تَشْمَلُ حَرَكَةَ الْمُؤْمِنِ فِي الْحَيَاةِ، وَصِلَتُهُ بِرَبِّهِ وَبِالْمَخْلُوقَاتِ الْأُخْرَى،
وَذَلِكَ دَلِيلٌ بَيِّنٌ وَاضِحٌ عَلَى خَطَرِ وَأَثَرِ الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ فِي الْحَيَاةِ، وَحُصُولِ
الْقُوَّةِ فِيهَا، فَيَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ لَيْسَ مُجَرَّدَ
تَرْدِيدِهِمَا بِاللِّسَانِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ مِنْهُمَا: مَا يَدُلُّ عَلَى تَرْكِ كُلِّ مَا يُغْضِبُ اللَّهَ
-تَعَالَى- مِنْ شُرْكٍَ وَنِفَاقٍ وَمَعَاصٍ، وَالْإِنْخِلَاعِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ انْخِلَاعًا كَامِلًا؛
إِيمَانًا بِاللَّهِ -تَعَالَى-، وَعِبُودِيَّةً وَطَاعَةً لَهُ، وَاتِّبَاعًا لَشَرْعِهِ الْقَوِيمِ، وَنَبْذًا لِمَا عَدَاهُ.

وَالْإِسْتِغْفَارُ مِنَ الشُّرْكِ وَالْمَعْصِيَةِ هُوَ دَلِيلٌ حَسَّاسِيَّةِ الْقَلْبِ وَاتِّفَاضِهِ، وَشُعُورِهِ
بِالْإِثْمِ، وَرَغْبَتِهِ فِي التَّوْبَةِ، وَالتَّوْبَةُ بَعْدَ ذَلِكَ هِيَ الْإِقْلَاعُ الْفِعْلِيُّ عَنِ الذَّنْبِ،

وَالْأَخْذُ فِي مُقَابِلِهِ فِي أَعْمَالِ الطَّاعَةِ، وَلَا تَوْبَةَ بغيرِ هَذَيْنِ الدَّلِيلَيْنِ، فَهَمَّا التَّرْجَمَةُ الْعَمَلِيَّةُ لِلتَّوْبَةِ، وَبِهِمَا يَتَحَقَّقُ وُجُودُهَا الْفِعْلِيُّ الَّذِي تُرْجَى مَعَهُ الْمَغْفِرَةُ وَالْقَبُولُ.

وَالْمُتَمَلُّ فِي الْوَعُودِ الرَّبَّانِيَّةِ الْكَرِيمَةِ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ بِسَعَةِ الْحَيَاةِ، وَإِدْرَارِ الْمَطَرِ، وَحُصُولِ الْقُوَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُرِيدُهُ النَّاسُ فِي حَيَاتِهِمْ يَتَبَادَرُ إِلَى ذَهْنِهِ.. هَذَا الْمُتَمَلُّ يَتَبَادَرُ إِلَى ذَهْنِهِ سُؤَالَ حَوْلِ عِلَاقَةِ الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ بِهِذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي تَجْرِي فِيهَا سُنَّةُ اللَّهِ -تَعَالَى- وَفَقَ قَوَانِينِ ثَابِتَةٍ فِي نِظَامِ هَذَا الْوُجُودِ مِنْ صُنْعِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ.

وَالْجَوَابُ يَأْتِي مِنْ نَاحِيَةِ أَنَّ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ الْقِيَمِ الْإِيمَانِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الظَّاهِرَةِ فِي الْحَيَاةِ عِلَاقَةٌ أَكِيدَةٌ، أَكَدَتْهَا نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا -عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ -:
قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وَقَوْلُهُ -سُبْحَانَهُ -: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا حُدُودَ اللَّهِ فَتُحْيِيَنَّكُمْ مِّنْ ذُرِّيَّتِكُمْ وَمَن يُعْرِضْ عَن حُدُودِ اللَّهِ فَأَنذَرْنَا غَيْرَهُ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنُعَذِّبَنَّكَ وَلَهُ آسَافُ حَسْبٌ ﴿١٣٣﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

وَقَوْلُهُ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥-١٠].

فَلَمْ يُخَلِّقْ هَذَا الْكَوْنَ بِمَا فِيهِ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ عَبَثًا أَوْ هَمَلًا، وَلَكِنَّهُ وَجَدَ لِحِكْمَتِهِ، وَخَلَقَ فِيهِ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ لِغَايَةِ عُظْمَىٰ، تَكُونُ سَعَادَتُهُمَا أَوْ شَقَاوَتُهُمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَىٰ قَدْرِ تَحْقِيقِهِمَا لِهَذِهِ الْغَايَةِ فِي الْحَيَاةِ، أَوْ تَفْرِيطِهِمَا فِيهَا.

قَالَ -تَعَالَى-: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وَلِنُنظُرَ مِنْ قَرِيبٍ فِي تَأْثِيرِ الْقِيَمِ الْإِيمَانِيَّةِ فِي وَاقِعِ حَيَاةِ أَصْحَابِهَا، فَسَرَى
أَنَّ زِيَادَةَ الْقُوَّةِ الْأَمْرِ فِيهَا قَرِيبٌ مَيْسُورٌ؛ بَلْ وَاقِعٌ؛ فَإِنَّ نِظَافَةَ الْقَلْبِ وَالْعَمَلَ فِي
الْأَرْضِ يَزِيدَانِ النَّائِبِينَ الْعَامِلِينَ قُوَّةً وَصِحَّةَ جِسْمٍ بِالْإِعْتِدَالِ، وَالِإِفْتِصَارِ عَلَى
الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، وَرَاحَةِ ضَمِيرٍ وَهُدُوءِ أَعْصَابٍ، وَاطْمِئْنَانًا إِلَى اللَّهِ -تَعَالَى-،
وَرِثَقَةً بِرَحْمَتِهِ فِي كُلِّ آنٍ، وَإِحْسَاسًا بِنُصْرَةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ، مَعَ أُنْسِ النَّفْسِ بِذَلِكَ أُنْسًا
يَتَجَدَّدُ مَعَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي قُوَّةً وَزِيَادَةً.

كُلُّ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَبْعَثَ قُوَّةً فِي النَّفْسِ تَحَدَّى بِهَا صِعَابَ الدُّنْيَا
وَأَهْوَالَهَا، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْقُوَّةُ الَّتِي فِي نَفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ تُشْبِهُ قُوَّةَ الْمُجْتَمَعَاتِ غَيْرِ
الْمُؤْمِنَةِ؛ فَقُوَّةُ هَذِهِ الْمُجْتَمَعَاتِ قُوَّةٌ مَادِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ، لَا تَسْتَمِدُّ وَجُودَهَا مِنْ دِينٍ
صَحِيحٍ، وَلَيْسَ الدِّينُ الصَّحِيحُ إِلَّا دِينُ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ فَحَسْبُ؛ فَهِيَ قُوَّةٌ لَا
تَسْتَنْدُ إِلَى أَسَاسٍ رَكِينٍ، إِنَّمَا اسْتَنْدَتْ إِلَى جَانِبٍ وَاحِدٍ مِنَ السَّنَنِ الْكُونِيَّةِ؛
كَالْعَمَلِ، وَالنِّظَامِ، وَوَفْرَةِ الْإِنْتِاجِ، وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ وَحْدَهَا لَا تَدُومُ؛ لِأَنَّ فَسَادَ
الْحَيَاةِ الشُّعُورِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ يَقْضِي عَلَيْهَا بَعْدَ حِينٍ.

وَنُزُولِ الْمَطَرِ الْمَدْرَارِ يَتِمُّ بِأَمْرِ اللَّهِ -تَعَالَى- وَفَقَ سُنَنِهِ فِي كَوْنِهِ، وَاللَّهُ
-تَعَالَى- وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الْمَطَرَ مَدْرَارًا عَلَى قَوْمٍ، وَيَجْعَلُهُ شَدِيدًا مُدْمِرًا
عَلَى آخَرِينَ وَفَقَ إِرَادَتِهِ ﷻ؛ فَهُوَ بِقُدْرَتِهِ -تَعَالَى- يَتَصَرَّفُ فِي السَّنَنِ الْكُونِيَّةِ،
فَهُوَ خَالِقُهَا، وَخَالِقُ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُوجِدُهَا، فَمَشِيئَتُهُ الْمُطْلَقَةُ هِيَ الَّتِي تُصَرِّفُ
الْأَسْبَابَ وَالظَّوَاهِرَ بِغَيْرِ مَا اعْتَادَ النَّاسُ مِنْ ظَوَاهِرِ النَّوَامِيسِ؛ وَذَلِكَ لِتَحْقِيقِ

قَدَرَ اللهُ كَيْفَمَا شَاءَ وَحَيْثُمَا شَاءَ، وَذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُونَ؛ فَلِلَّهِ فِي ذَلِكَ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ، وَالْقُدْرَةُ الْكَامِلَةُ، وَالْعِزَّةُ الشَّامِلَةُ،
لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (*).

الْإِسْتِغْفَارُ مَعَ التَّوْبَةِ سَبَبٌ لِحُصُولِ الرَّحْمَةِ وَالْوُدِّ مِنَ اللهِ -تَعَالَى-،
وَلِحُصُولِ الْقُرْبِ وَالْإِجَابَةِ مِنْهُ -تَعَالَى-؛ فَهُوَ جَلَّ وَعَلَا الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ الْمُسْتَغْفِرِينَ
التَّائِبِينَ، الْوُدُودُ لَهُمْ، الْقَرِيبُ مِنْهُمْ، الْمُجِيبُ لِدُعَائِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا كُلَّ مَا
يُغْضِبُهُ، وَانْخَلَعُوا بِالْكُلِّيَّةِ مِنْهُ، وَأَنَابُوا فِي صِدْقٍ إِلَيْهِ، فَهُوَ -سُبْحَانَهُ- لَا يَرُدُّ مَنْ
أَوَى إِلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ؛ وَلَوْ كَانَ كَافِرًا أَوْ مُنَافِقًا.

قَالَ -تَعَالَى-: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ

رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ [هود: ٦١].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ

﴿٩٠﴾ [هود: ٩٠].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْأُولَى (٢): ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ

فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ [هود: ٦١]: «أَيُّ: خَلَقَكُمْ مِنْهَا،
وَاسْتَخْلَفَكُمْ فِيهَا، وَأَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَمَكَّنَكُمْ فِي الْأَرْضِ

(*): مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُحَاصِرَةً: «التَّوْبَةُ مَعَ الْإِسْتِغْفَارِ يَحْصُلُ بِهِمَا الْخَيْرُ الْكَثِيرُ» - الثَّلَاثَاءُ ١٤

مِنْ صَفَرٍ ١٤٤٣هـ | ٢١-٩-٢٠٢١م.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٤٣).

تَبْنُونَ وَتَغْرِسُونَ وَتَزْرَعُونَ وَتَحْرُثُونَ مَا شِئْتُمْ، وَتَتَفَعَّلُونَ بِمَنَافِعِهَا، وَتَسْتَعْلُونَ مَصَالِحَهَا؛ فَكَمَا أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ فَلَا تُشْرِكُوا بِهِ فِي عِبَادَتِهِ.

وَفَسَّرَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْأَمْرَ فِي الْآيَةِ بِالْإِسْتِغْفَارِ بِأَنَّهُ الْإِسْتِغْفَارُ مِمَّا صَدَرَ مِنْكُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي بِالْإِقْلَاعِ عَنْهَا، ثُمَّ بِالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا، وَإِنَابَةً صَادِقَةً إِلَيْهِ -تَعَالَى-؛ فَهُوَ قَرِيبٌ مِمَّنْ دَعَاهُ دُعَاءُ مَسْأَلَةٍ أَوْ دُعَاءُ عِبَادَةٍ، يُجِيبُهُ بِإِعْطَائِهِ سُؤْلَهُ، وَقَبُولِ عِبَادَتِهِ، وَإِثَابَتِهِ عَلَيْهَا أَجَلَ ثَوَابٍ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاعْلَمَنَّ أَنَّ قُرْبَهُ -تَعَالَى- نَوْعَانِ: عَامٌّ وَخَاصٌّ، فَالْقُرْبُ الْعَامُّ: قُرْبُهُ بِعِلْمِهِ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ﴿١٦﴾ [ق:١٦].

وَالْقُرْبُ الْخَاصُّ: قُرْبُهُ مِنْ عَابِدِيهِ وَسَائِلِيهِ وَمُحِبِّيهِ، وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق:١٩]، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ -يَعْنِي: آيَةَ سُورَةِ هُودٍ-، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

وَهَذَا النَّوْعُ قُرْبٌ يَقْتَضِي أَلْطَافَهُ -تَعَالَى-، وَإِجَابَتَهُ لِدَعَوَاتِهِمْ، وَتَحْقِيقَهُ لِمُرَادِهِمْ».

وَجَاءَ الْأَمْرُ بِالْإِسْتِغْفَارِ مُقَدِّمًا عَلَى الْأَمْرِ بِالتَّوْبَةِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لِأَنَّ فِي غَيْرِهِ، وَالْإِسْتِغْفَارُ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ يُقْصَدُ بِهِ تَرْكُ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُخَاطَبُونَ مِنَ الشُّرْكِ؛ فَقَدْ جَاءَتْ آيَاتُ فِي ذَلِكَ فِي مَعْرِضِ الْحَوَارِ بَيْنَ أَنْبِيَاءِ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُودٍ وَشُعَيْبٍ وَصَالِحٍ وَبَيْنَ أَقْوَامِهِمُ الْكَافِرِينَ؛ حَيْثُ أَمَرُوهُمْ بِالْإِسْتِغْفَارِ ثُمَّ

بِالتَّوْبَةِ الَّتِي تَعْنِي الْإِنَابَةَ إِلَى اللَّهِ -تَعَالَى-؛ فَهَلْ هَذَا التَّرْتِيبُ فِي الذِّكْرِ تَرْتَبٌ عَلَيْهِ ضَرُورَةٌ التَّرْتِيبِ فِي الْوُجُودِ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ أَوَّلًا، ثُمَّ بَعْدَهُ التَّوْبَةُ مِنْ سَائِرِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي؛ سَوَاءٌ كَانَتْ شِرْكًَا أَوْ غَيْرَهُ؟

الْعِبْرَةُ فِي تِلْكَ الْآيَاتِ فِي الْمَوَاضِعِ الْأَرْبَعَةِ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ تَقْدِيمَ الْإِسْتِغْفَارِ عَلَى التَّوْبَةِ فِي تِلْكَ الْآيَاتِ لَا يَدُلُّ عَلَى ضَرُورَةِ التَّرْتِيبِ فِي كُلِّ حَالٍ؛ فَقَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ تَقْدِيمُ الْأَمْرِ بِالتَّوْبَةِ عَلَى الْأَمْرِ بِالْإِسْتِغْفَارِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ، وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: هُوَ الْأَمْرُ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهَا الْخَبَرَ، فَهِيَ فِي مَعْرِضِ الْحَدِيثِ عَنِ الْكَافِرِينَ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ اللَّهَ ثَالِثٌ ثَلَاثَةً، فَقَدْ جَاءَ قَبْلَهَا قَوْلُ اللَّهِ -تَعَالَى-: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

وَجَاءَ الْأَمْرُ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِسْتِغْفَارِ لِهَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ بِصِيغَةِ الْعَرْضِ وَالتَّحْضِيضِ، لَا بِصِيغَةِ الْأَمْرِ الْمُبَاشِرِ؛ دَلِيلًا عَلَى مَدَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ.

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١): «وَصَدَرَ دَعْوَتُهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ بِالْعَرْضِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٢٦٤-٢٦٥).

اللُّطْفِ وَاللِّينِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ ﴾ [المائدة: ٧٤]،
والتَّوْبَةُ هُنَا تَعْنِي الرُّجُوعَ عَنِ هَذَا الْكُفْرِ، وَالْإِقْرَارَ لِلَّهِ -تَعَالَى- بِالْوَحْدَانِيَّةِ،
ثُمَّ يَأْتِي الْإِسْتِغْفَارَ عَمَّا صَدَرَ مِنْ هَوْلَاءٍ فِي حَقِّ اللَّهِ -تَعَالَى-؛ فَهُوَ الْغُفُورُ
الرَّحِيمُ، فَمِنْ خِلَالِ هَذَا يُمَكِّنُ الْقَوْلُ بِأَنَّ التَّوْبَةَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ تَرِدُ مُرَادًا
بِهَا التَّوْبَةَ مِنَ الشَّرِّ، كَمَا تَرِدُ مُرَادًا بِهَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الذُّنُوبِ، وَذَلِكَ يُمَكِّنُ
الْقَوْلَ بِهِ فِي الْإِسْتِغْفَارِ -أَيْضًا- (*).

وَمِمَّا يَبْقَى مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْإِسْتِغْفَارُ.

الْإِسْتِغْفَارُ: هُوَ طَلَبُ الْمَغْفِرَةِ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الدُّعَاءِ؛ وَلَكِنَّهُ أَحْصَى
مِنْهُ، فَهُوَ خَاصٌّ بِطَلَبِ مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ لِدُخُولِ النَّارِ.

قَالَ -تَعَالَى-: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ

وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣]. (* / ٢).

وَمِنْ مَوَانِعِ إِنْفَازِ الْوَعِيدِ: التَّوْبَةُ وَالْإِسْتِغْفَارُ.

مِنْ مَوَانِعِ إِنْفَازِ الْوَعِيدِ: الْإِسْتِغْفَارُ؛ فَقَدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ عَلَى أَنَّ
الْإِسْتِغْفَارَ مَانِعٌ مِنْ إِنْفَازِ الْوَعِيدِ.

وَمِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا

(* / ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُحَاصِرَةً: «الْإِسْتِغْفَارُ مَعَ التَّوْبَةِ سَبَبٌ لِحُصُولِ الرَّحْمَةِ وَالْوُدِّ مِنَ اللَّهِ -

تَعَالَى-» - الثَّلَاثَاءُ ١٤ مِنْ صَفَرٍ ١٤٤٣ هـ | ٢١-٩-٢٠٢١ م.

(* / ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُحَاصِرَةً: «وَمِمَّا يَبْقَى مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْإِسْتِغْفَارُ».

أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

وَقَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَحْدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ﴿١١٠﴾ [النساء: ١١٠].

وَقَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ ﴿٦٤﴾ [النساء: ٦٤].

وَقَالَ عليه السلام: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا -وَرُبَّمَا قَالَ: أَذْنَبَ ذَنْبًا-، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ -وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ- ذَنْبًا؛ فَاغْفِرْ لِي.

فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا -أَوْ: أَذْنَبَ ذَنْبًا-، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ -أَوْ: أَصَبْتُ- آخَرَ فَاغْفِرْهُ.

فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا -وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا-، قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا -أَوْ قَالَ: أَذْنَبَ آخَرَ- فَاغْفِرْهُ لِي.

فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي -ثَلَاثًا-؛ فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»^(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ» (١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فَدَلَّتْ هَذِهِ النُّصُوصُ الْمُحْكَمَةُ عَلَى أَنَّ الْإِسْتِغْفَارَ مَانِعٌ مِنْ إِنْفَادِ الْوَعِيدِ.

وَالْتَوْبَةُ مَانِعٌ مِنْ إِنْفَادِ وَعِيدِ جَمِيعِ الذُّنُوبِ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

قَالَ -تَعَالَى-: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] أَيْ: لِمَنْ تَابَ.

وَقَالَ -تَعَالَى-: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٨) ﴿٣٩﴾ [المائدة: ٣٨-٣٩].

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» (٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ» (٣). أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ حِبَّانَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وأحمد (٦١٦٠)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن

الترمذي» (٣٥٣٧) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ: فَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ التَّوْبَةَ مِنَ الْكُفْرِ مَقْبُولَةٌ مَا لَمْ يُوقِنِ الْمَرْءُ بِالْمَوْتِ بِالْمُعَايَنَةِ.

وَكَذَلِكَ التَّوْبَةُ مِنَ الزَّنى، وَمِنْ فِعْلِ فِعْلَةٍ قَوْمِ لُوطٍ، وَمِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ، وَمِنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَبِّهِ -تَعَالَى- مِمَّا لَا يَحْتَاجُ فِي التَّوْبَةِ إِلَى دَفْعِ مَالٍ، وَمِمَّا لَيْسَ مَظْلَمَةً لِلْإِنْسَانِ.

فَالتَّوْبَةُ مَانِعٌ شَامِلٌ يَمْنَعُ إِنْفَاذَ وَعِيدِ جَمِيعِ الذُّنُوبِ كَالْكَفْرِ وَمَا دُونَهُ، وَهَذَا الشُّمُولُ مُخْتَصٌّ بِهَذَا الْمَانِعِ.

فَالتَّوْبَةُ تَمْحُو جَمِيعَ السَّيِّئَاتِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يَغْفِرُ جَمِيعَ الذُّنُوبِ إِلَّا التَّوْبَةُ. (*)

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: «الْإِسْتِغْفَارُ يُخْرِجُ الْعَبْدَ مِنَ الْفِعْلِ الْمَكْرُوهِ إِلَى الْفِعْلِ الْمَحْبُوبِ، مِنَ الْعَمَلِ النَّاقِصِ إِلَى الْعَمَلِ التَّامِّ، وَيَرْفَعُ الْعَبْدَ مِنَ الْمَقَامِ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى مِنْهُ وَالْأَكْمَلَ؛ فَإِنَّ الْعَابِدَ لِلَّهِ وَالْعَارِفَ بِاللَّهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ.. بَلْ فِي كُلِّ سَاعَةٍ؛ بَلْ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ يَزْدَادُ عِلْمًا بِاللَّهِ وَبَصِيرَةً فِي دِينِهِ وَعُبُودِيَّتِهِ؛ بِحَيْثُ يَجِدُ ذَلِكَ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، وَنَوْمِهِ وَيَقْطَعْتِهِ، وَقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، وَيَرَى تَقْصِيرَهُ فِي حُضُورِ قَلْبِهِ فِي الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةِ، وَإِعْطَائِهَا حَقَّهَا، فَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى الْإِسْتِغْفَارِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ؛ بَلْ هُوَ مُضْطَّرٌّ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةٍ: «مِنْ مَوَانِعِ إِنْفَاذِ الْوَعِيدِ: التَّوْبَةُ وَالْإِسْتِغْفَارُ وَالْحَسَنَاتُ الْمَاجِيَةُ».

إِلَيْهِ دَائِمًا فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَحْوَالِ، فِي الْغَوَائِبِ وَالْمَشَاهِدِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَصَالِحِ، وَجَلَبِ الْخَيْرَاتِ، وَدَفْعِ الْمَضْرَّاتِ، وَطَلَبِ الزِّيَادَةِ فِي الْقُوَّةِ فِي الْأَعْمَالِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ الْيَقِينِيَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ.

وَقَدْ ثَبَتَتْ دَائِرَةُ الْإِسْتِغْفَارِ بَيْنَ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَاقْتِرَانِهَا بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِنْ أَوْلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَمِنْ آخِرِهِمْ إِلَى أَوْلِهِمْ، وَمِنْ الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى.

وَشُمُولُ دَائِرَةِ التَّوْحِيدِ وَالْإِسْتِغْفَارِ لِلخَلْقِ كُلِّهِمْ، وَهُمْ فِيهَا دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَلِكُلِّ عَامِلٍ مَقَامٌ مَعْلُومٌ، فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ بِصِدْقٍ وَيَقِينٍ تَذْهَبُ الشُّرْكَ كُلَّهُ؛ دَقَّةً وَجِلَّةً، خَطَأَهُ وَعَمَدَهُ، أَوْلَهُ وَآخِرَهُ، سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ، وَتَأْتِي عَلَى جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَخَفَايَاهُ وَدَقَائِقِهِ.

وَالْإِسْتِغْفَارُ يَمْحُو مَا بَقِيَ مِنْ عَثْرَاتِهِ، وَيَمْحُو الذَّنْبَ الَّذِي هُوَ مِنْ شُعْبِ الشُّرْكِ؛ فَإِنَّ الذُّنُوبَ كُلَّهَا مِنْ شُعْبِ الشُّرْكِ.

فَالتَّوْحِيدُ يَذْهَبُ أَصْلَ الشُّرْكِ، وَالْإِسْتِغْفَارُ يَمْحُو فُرُوعَهُ، فَأَبْلَغُ الشَّنَاءِ قَوْلُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وَأَبْلَغُ الدُّعَاءِ قَوْلُ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»، فَأَمْرُهُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِسْتِغْفَارِ لِنَفْسِهِ وَلاِخْوَانِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»^(١).

«مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ وَالْإِسْتِغْفَارَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُرْفَعَ عَنْهُ الشَّرُّ؛ فَلهَذَا قَالَ ذُو النُّونِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].»

(١) «مجموع الفتاوى» (١١ / ٦٩٦-٦٩٧).

وَلِهَذَا يَقْرُنُ اللَّهُ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالْإِسْتِغْفَارِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]
وَقَوْلِهِ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢]، ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ
ثُمَّ تُبَوِّأُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَقَوْمِ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُبَوِّأُوا إِلَيْهِ﴾
[هود: ٥٠-٥٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

وَخَاتَمَةُ الْمَجْلِسِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا
أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ؛ إِنْ كَانَ مَجْلِسَ رَحْمَةٍ كَانَتْ كَالطَّابَعِ عَلَيْهِ،
وَإِنْ كَانَ مَجْلِسَ لَعْنٍ كَانَتْ كَفَارَةً لَهُ»^(١)، وَهَذَا الذِّكْرُ يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ
وَالْإِسْتِغْفَارَ»^(٢).

الْإِسْتِغْفَارُ سَبَبُ انْشِرَاحِ الصَّدْرِ، وَذَوْقِ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ، قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ
رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِذَا اجْتَهَدَ، وَاسْتَعَانَ بِاللَّهِ -تَعَالَى-، وَلَا زَمَ الْإِسْتِغْفَارَ وَالْاجْتِهَادَ؛

(١) «صحيح الترغيب والترهيب» (١٥١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أخرجه الترمذي
(٣٤٣٣) واللفظ له، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٢٣٠)، وصححه الألباني في
«صحيح سنن الترمذي» (٣٤٣٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثَرَ فِيهِ لَغَطُهُ فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ
اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي
مَجْلِسِهِ ذَلِكَ».

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٢٦٢).

فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ مَا لَمْ يَخْطُرْ بِبَالٍ، وَإِذَا رَأَى أَنَّهُ لَا يَنْشَرِحُ صَدْرُهُ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُ حَلَاوَةٌ الْإِيمَانِ وَنُورُ الْهِدَايَةِ؛ فَلْيَكْثِرِ التَّوْبَةَ وَالْإِسْتِغْفَارَ، وَلْيَلْزِمِ الْجِتْهَادَ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وَعَلَيْهِ بِإِقَامَةِ الْفَرَائِضِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَلِزُومِ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ، مُتَبَرِّئًا مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ»^(١).

الْإِسْتِغْفَارُ يَمْحُو الذُّنُوبَ، وَيُزِيلُ ضَرَرَهَا، وَيَفْرَجُ الْهَمُومَ، «الذُّنُوبُ سَبَبٌ لِلضَّرِّ، وَالْإِسْتِغْفَارُ يُزِيلُ أَسْبَابَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٢) [الأنفال: ٣٣]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ - سُبْحَانَهُ - لَا يُعَذِّبُ مُسْتَغْفِرًا.

وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَكْثَرَ الْإِسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»^(٢)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٠) [الشورى: ٣٠]»^(٣).

(١) «مجموع الفتاوى» (١١ / ٣٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (١ / ٢٤٨)، وأبو داود (١٥١٨)، والنسائي في «اليوم والليلة» (٤٦٠)، وابن ماجه (٣٨١٩)، وابن السني (٣٦٦)، والطبراني في «الأوسط» (٦٢٩١) وفي «الكبير» (١٠ / ٣٤٢) وفي «الدعاء» (١٧٧٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣ / ٢١١)، والحاكم (٤ / ٢٦٢) والبيهقي في «الكبرى» (٣ / ٣٥١)، والحافظ ابن حجر في «الأمالى المطلقة» (ص ٢٥)، وصححه الشيخ أحمد شاكر (هامش المسند: ٤ / ٥٥).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١ / ٢٥٥).

«وَأَمَّا تَأْثِيرُ الْإِسْتِغْفَارِ فِي دَفْعِ الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالضُّيْقِ؛ فَلَمَّا اشْتَرَكَ فِي الْعِلْمِ بِهِ أَهْلُ الْمِلَلِ وَعُقَلَاءُ كُلِّ أُمَّةٍ أَنَّ الْمَعَاصِيَ وَالْفَسَادَ تُوجِبُ الْهَمَّ وَالْغَمَّ، وَالْخَوْفَ وَالْحُزْنَ، وَضِيقَ الصَّدْرِ وَأَمْرَاضِ الْقَلْبِ؛ حَتَّى إِنَّ أَهْلَهَا إِذَا قَضَوْا مِنْهَا أَوْطَارَهُمْ، وَسَمَّيْتَهَا نُفُوسَهُمْ ارْتَكَبُوهَا؛ دَفْعًا لِمَا يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الضُّيْقِ وَالْهَمِّ وَالْغَمِّ.

وَإِذَا كَانَ هَذَا تَأْثِيرَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ فِي الْقُلُوبِ فَلَا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا التَّوْبَةُ وَالْإِسْتِغْفَارُ»^(١).



(١) «زاد المعاد» (٤ / ١٩١).





إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ

«يَا مَنْ عَزَمَ السَّفَرَ إِلَى اللَّهِ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ، قَدْ رُفِعَ لَكَ عِلْمٌ فَشَمِّرْ إِلَيْهِ فَقَدْ أَمَكْنَ التَّشْمِيرُ، وَاجْعَلْ سَيْرَكَ بَيْنَ مُطَالَعَةِ مِثَّتِهِ وَمُشَاهَدَةِ عَيْبِ النَّفْسِ وَالْعَمَلِ وَالتَّقْصِيرِ، فَمَا أَبْقَى مَشْهُدُ النُّعْمَةِ وَالذَّنْبِ لِلْعَارِفِ مِنْ حَسَنَةٍ يَقُولُ: هَذِهِ مُنْجِيَّتِي مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ، مَا الْمَعْوَلُ إِلَّا عَلَى عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، فَكُلُّ أَحَدٍ إِلَيْهِمَا فَاقِرٌ، أَبُوؤُكَ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوؤُكَ بِذَنْبِي، فَاعْفُرْ لِي، أَنَا الْمُدْنِبُ الْمِسْكِينُ وَأَنْتَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ.»

مَا تَسَاوَى أَعْمَالُكَ لَوْ سَلِمْتَ مِمَّا يُبْطِلُهَا أَدْنَى نِعْمَةٍ مِنْ نِعْمِهِ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ مُرْتَهَنٌ بِشُكْرِهَا مِنْ حِينَ أُرْسِلَ بِهَا إِلَيْكَ؛ فَهَلْ رَعَيْتَهَا - بِاللَّهِ - حَقَّ رِعَايَتِهَا وَهِيَ فِي تَصْرِيْفِكَ وَطَوْعُ يَدَيْكَ؟!!!

فَتَعَلَّقْ بِحَبْلِ الرَّجَاءِ، وَادْخُلْ مِنْ بَابِ التَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ. نَهَجَ لِلْعَبْدِ طَرِيقَ النِّجَاةِ وَفَتَحَ لَهُ أَبْوَابَهَا، وَعَرَفَهُ طُرُقَ تَحْصِيلِ السَّعَادَةِ وَأَعْطَاهُ أَسْبَابَهَا، وَحَذَّرَهُ مِنْ وَبَالِ مَعْصِيَتِهِ، وَأَشْهَدَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى غَيْرِهِ شُؤْمَهَا وَعِقَابَهَا، وَقَالَ: إِنْ أَطَعْتَ فَبِفَضْلِي وَأَنَا أَشْكُرُ، وَإِنْ عَصَيْتُ فَبِقَضَائِي وَأَنَا أَغْفِرُ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

وَأَزَاحَ عَنِ الْعَبْدِ الْعِلَلَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَسْتَعِيدَ بِهِ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَوَعَدَهُ أَنْ
يَشْكُرَ لَهُ الْقَلِيلَ مِنَ الْعَمَلِ، وَيَغْفِرَ لَهُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

أَعْطَاهُ مَا يَشْكُرُ عَلَيْهِ، ثُمَّ شَكَرَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ إِلَى نَفْسِهِ لَا عَلَى إِحْسَانِهِ إِلَيْهِ،
وَوَعَدَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ لِنَفْسِهِ أَنْ يُحْسِنَ جَزَاءَهُ وَيُقَرِّبَهُ لَدَيْهِ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَهُ خَطَايَاهُ إِذَا
تَابَ مِنْهَا وَلَا يَفْضَحْهُ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

وَثَقَّتْ بِعَفْوِهِ هَفَوَاتُ الْمُذْنِبِينَ فَوَسَّعَتْهَا، وَعَكَفَتْ بِكَرَمِهِ آمَالُ الْمُحْسِنِينَ
فَمَا قَطَعَ طَمَعَهَا، وَخَرَقَتْ السَّعَ الطَّبَاقَ دَعَوَاتُ التَّائِبِينَ وَالسَّائِلِينَ فَسَمِعَهَا،
وَوَسَّعَ الْخَلَائِقَ عَفْوُهُ وَمَغْفِرَتُهُ وَرِزْقُهُ، فَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ
رِزْقُهَا، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

يَجُودُ عَلَى عِبْدِهِ بِالنَّوَالِ قَبْلَ السُّؤَالِ، وَيُعْطِي سَائِلَهُ وَمُؤَمِّلَهُ فَوْقَ مَا تَعَلَّقَتْ
بِهِ مِنْهُمْ الْأَمَالُ، وَيَغْفِرُ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَلَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُهُ عَدَدَ الْأَمْوَاجِ وَالْحَصَى
وَالْتُرَابِ وَالرَّمَالِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوْلِدِهَا، وَأَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَائِدِ التَّائِبِ مِنَ الْفَاقِدِ
لِرَاحِلَتِهِ الَّتِي عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فِي الْأَرْضِ الْمُهْلِكَةِ إِذَا وَجَدَهَا، وَأَشْكُرُ
لِلْقَلِيلِ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، فَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنَ الْخَيْرِ شَكَرَهَا وَحَمَدَهَا؛
إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

تَعَرَّفَ إِلَى عِبَادِهِ بِأَسْمَائِهِ وَأَوْصَافِهِ، وَتَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ بِحِلْمِهِ وَآلَائِهِ، وَلَمْ تَمْنَعَهُ
مَعَاصِيهِمْ بِأَنْ جَادَ عَلَيْهِمْ بِالْآلَائِهِ، وَوَعَدَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَحْسَنَ طَاعَتَهُ بِمَغْفِرَةِ
ذُنُوبِهِ يَوْمَ لِقَائِهِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

السَّعَادَةُ كُلُّهَا فِي طَاعَتِهِ، وَالْأَرْبَاحُ كُلُّهَا فِي مُعَامَلَتِهِ، وَالْمَحَنُ وَالْبَلَايَا كُلُّهَا فِي مَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ؛ فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْفَعُ مِنْ شُكْرِهِ وَتَوْبَتِهِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

أَفَاضَ عَلَى خَلْقِهِ النُّعْمَةَ، وَكَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَضَمَّنَ الْكِتَابَ الَّذِي كَتَبَهُ إِنَّ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

يُطَاعُ فَيُشْكَرُ؛ وَطَاعَتُهُ مِنْ تَوْفِيقِهِ وَفَضْلِهِ، وَيَعْصَى فَيَحْلُمُ؛ وَمَعْصِيَةُ الْعَبْدِ مِنْ ظُلْمِهِ وَجَهْلِهِ، وَيَتُوبُ إِلَيْهِ فَاعِلُ الْقَبِيحِ فَيَغْفِرُ لَهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَطُّ مِنْ أَهْلِهِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

الْحَسَنَةُ عِنْدَهُ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهَا أَوْ يُضَاعَفُهَا بِلَا عَدَدٍ وَلَا حُسْبَانٍ، وَالسَّيِّئَةُ عِنْدَهُ بِوَاحِدَةٍ وَمَصِيرُهَا إِلَى الْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ، وَبَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ لَدَيْهِ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

بَابُهُ الْكَرِيمُ مُنَاحُ الْأَمَالِ وَمَحَطُّ الْأَوْزَارِ، وَسَمَاءُ عَطَايَاهُ لَا تُقْلَعُ عَنِ الْغَيْثِ بَلْ هِيَ مِدْرَارٌ، وَيَمِينُهُ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةُ سَحَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

لَا يَلْقَى وَصَايَاهُ إِلَّا الصَّابِرُونَ، وَلَا يَقُوزُ بِعَطَايَاهُ إِلَّا الشَّاكِرُونَ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَيْهِ إِلَّا الْهَالِكُونَ، وَلَا يَشْقَى بِعَذَابِهِ إِلَّا الْمُتَمَرِّدُونَ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

فَإِيَّاكَ أَيُّهَا الْمُتَمَرِّدُ أَنْ يَأْخُذَكَ عَلَى غِرَّةٍ فَإِنَّهُ غَيُورٌ، وَإِذَا أَقَمْتَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَهُوَ يَمُدُّكَ بِنِعْمَتِهِ فَاحْذَرُهُ فَإِنَّهُ لَمْ يَهْمَلِكْ لِكِنَّهِ صَبُورٌ، وَبُشْرَاكَ أَيُّهَا التَّائِبُ بِمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ؛ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ.

مَنْ عَلِمَ أَنَّ الرَّبَّ شَكُورٌ تَنَوَّعَ فِي مُعَامَلَتِهِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ تَعَلَّقَ بِأَذْيَالِ مَغْفِرَتِهِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ لَمْ يَيْأَسْ مِنْ رَحْمَتِهِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

مَنْ تَعَلَّقَ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ أَخَذَتْهُ بِيَدِهِ حَتَّى تُدْخِلَهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ سَارَ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصَلَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَحَبَّهُ أَحَبَّ أَسْمَاءُهُ وَصِفَاتِهِ وَكَانَتْ أَثْرَ شَيْءٍ لَدَيْهِ.

حَيَاةُ الْقُلُوبِ فِي مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَكَمَالُ الْجَوَارِحِ فِي التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ، وَالْقِيَامُ بِخِدْمَتِهِ، وَكَمَالُ الْأَلْسِنَةِ بِذِكْرِهِ وَالشَّانِ عَلَيْهِ بِأَوْصَافِ مَدْحِهِ، فَأَهْلُ شُكْرِهِ أَهْلُ زِيَادَتِهِ، وَأَهْلُ ذِكْرِهِ أَهْلُ مُجَالَسَتِهِ، وَأَهْلُ طَاعَتِهِ أَهْلُ كَرَامَتِهِ، وَأَهْلُ مَعْصِيَتِهِ لَا يُقْنَطُهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، إِنْ تَابُوا فَهُوَ حَبِيبُهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا فَهُوَ طَبِيبُهُمْ، يَبْتَلِيهِمْ بِأَنْوَاعِ الْمَصَائِبِ لِيُكْفِرَ عَنْهُمْ الْخَطَايَا وَيُطَهِّرَهُمْ مِنَ الْمَعَائِبِ؛ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ^(١). (*)



(١) خاتمة كتاب «عدة الصابرين» لابن القيم: (ص ٥٤٥-٥٤٨).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «السَّيْرُ إِلَى اللَّهِ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ» - الْجُمُعَةُ ٢٥ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ

أَكْثِرُوا مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ!

عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ عِنْدَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعَاصِي وَالْمَعَايِبِ.

وَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَحْقِيقِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَلِيَتَّخِذَ اللَّهُ هَادِيًا وَنَصِيرًا وَحَاكِمًا وَوَلِيًّا؛ فَإِنَّهُ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ، وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا. (*)

عَلَيْنَا - عِبَادَ اللَّهِ - أَنْ نُكْثِرَ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا؛ لَا تَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» (٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «عَرَفْتُ فَالزَّمْ» - ٢٨ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى ١٤٣٣ | ٢٠-٤ -

وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ فِيمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ
إِبْلِيسُ: وَعِزَّتِكَ! لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ».

يَقُولُ لِرَبِّنَا جَلَّ وَعَلَا.

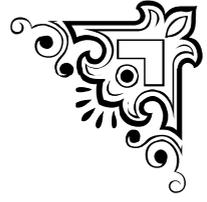
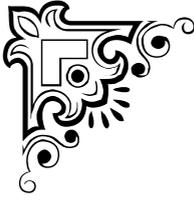
فَقَالَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي! لَا أزالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا
اسْتَغْفَرُونِي»^(١).

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَيَّ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ. (*).



(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١١٢٣٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وحسنه
لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦١٧).
(*). مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مَقْطَعٌ بِعُنْوَانٍ: «عَلَيْنَا أَنْ نُكْثِرَ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ».



الفهرس

٣	المُقدِّمةُ
٤	فَتَحْ أَبْوَابِ التَّوْبَةِ وَالْإِسْتِغْفَارِ
١٠	الإِسْتِغْفَارُ لُغَةً وَشَرْعًا
١٥	الإِسْتِغْفَارُ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ
٢٥	حَقِيقَةُ الإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ
٢٨	الإِسْتِغْفَارُ دَأْبُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ
٣١	جُمْلَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ الإِسْتِغْفَارِ
٤٧	إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ
٥١	أَكْثِرُوا مِنَ الإِسْتِغْفَارِ!

